عنف أم حزم في كتابات بولس الرسول

الجامعة الأنطونية ٢٧ حزيران ٢٠٠٩

الأخت باسمة الخوري

من هو بولس؟

أعلن قداسة البابا في ٢٨ حزيران ٢٠٠٨، ليلة عيد القديسين بطرس وبولس، تكريس سنة يوبيلية خاصة للاحتفال بالألفية الثانية لمولد القديس بولس رسول الأمم. كان هذل الخبر بالنسبة إلى البعض بمثابة بشرى رائعة، فبدأت التحضيرات للاحتفالات، وولدت اللجان وكثرت البرامج...؛ لكنه كان بالنسبة للبعض الآخر صعقة لا تحتمل فبدأ الكتابات ضد هذا الرسول الخائن العنيف المضلَّل، وتمحور الاهتمام حول كيفيّة الإعلان عن خطورة أفكاره...

الحقيقة أن بولس الرسول لا يزال حتى يومنا هذا، شخصية ينقسم الناس تجاهها. ففي حين يعتبره البعض أعظم الرسل، ينعته البعض الآخر بأخطر المنافقين.

جعلت الكنيسة من القديس بولس أبرز الشخصيات الرسولية في تاريخها، تقرأ من رسائله في كل أحد وعيد، فحظي بأكبر نصيب من الرفض من معاديها ومنتقديها. قال البعض أنه رسول المسيح، واعتبره الآخرون خائنًا "نصّب نفسه رسولاً"، وأسّس مسيحية على غير ما أرادها يسوع المسيح... هو من اضطهد الكنيسة الأولى، ولاحق المؤمنين دون هوادة، فأخذ صورة الإنسان العنيف المخيف، لكنّه هو من كتب "من يبكي ولا أبكي أنا، ومن يتألّم ولا أنوجع؟".

مَن هو بولس، وما هي حقيقة أفكاره وقناعاته؟ وهل هو فعلاً بولس العنيف أم بولس الحازم صاحب المباديء التي لا يمكن أن يتراجع عنها؟

شاول أو بولس.... آخر الرسل أو أول الانجيليين

قلّة من الناس تعرف بأن القديس بولس علّم وكتب رسائله قبل تحرير الأناجيل، وأنه يوم مات شهيدًا سنة ٦٩، لم يكن قد ظهر بعد أيٌّ من كتب العهد الجديد.

نعرفه من مصدرين: المصدر الأول هو كتاب أعمال الرسل، وهو الجزء الثاني من مؤلّف القديس لوقا، (الانجيل الثالث وكتاب أعمال الرسل)؛ والمصدر الثاني الرسائل التي بعثها بولس بنفسه الى الجماعات التي

أسسَّها، وقد كتبها ما بين سنة ٥٠ و٥٨. تشكّل هذه الرسائل شهادة ذاتية عن بولس، مما يعطيها قيمة تاريخية أكيدة.

وُلِد القديس بولس في بداية الحقبة المسيحية، في طرسوس كيليكيا (تركيا الحالية). ويُقال أنه وُلِد في الجش (على الحدود اللبنانية الفلسطينية)، قبل أن تهاجر عائلته الى طرسوس. ولا تزال الجش حتى اليوم تعتبر أنها مسقط رأس رسول الأمم. نعرف أنه كان أصغر من يسوع، لأنه كان "شابًا" عند استشهاد اسطفانوس حوالي السنة ٣٥ (أع ٧: ٥٨). هناك تلقّى تربية على مستوى عالٍ، فدرس الفلسفة اليونانية، وفن الخطابة واللغات، ثم جاء أورشليم ليتعمّق في دراسة الشريعة الدينية. هكذا جمع شاول بولس في تربيته، كما في المحيط الذي نما فيه، صرامة الالتزام الديني الفرّيسي، وانفتاح الفكر في تفسير الشريعة، هو اليهودي إبن البيئة المختلطة المضطرّ نظرًا لاضطراره إلى المعاطاة مع من هم غير يهود في بلاد المهجر حيث نما. هذا ما ساعده في حياته الرسوليّة، على تخطّي حدود فلسطين الجغرافيّة، وعلى تخطّي الانغلاق اليهودي اللاهوتي، ليحمل بشرى الخلاص على مدى المسكونة.

كان شاول بولس ذا طبع شغوف، جذري، صادق، وحازم. كان الدين بالنسبة إليه يتمثّل بالالتزام بالشريعة، وتطبيقها بحذافيرها. من هذا المنطلق فهم تعاليم يسوع، الذي لم يتعرّف إليه، وكأنه تحديف أكيد، وكفر واضح. سؤال واحد شغله طويلاً يتلخّص بالتالي: كيف يكون يسوع الناصري المصلوب، هو المسيح الذي يُفترض أن يجدّد الايمان بمتطلّبات الشريعة والعمل على تطبيق وصاياها؟ ألم تعلن الشريعة حرفيًا بأن كل مصلوب ملعون من الله؟ فكيف يمكن أن يجرؤ أحدٌ على تقديس وتأليه من لعَنَه الله؟ وكيف يمكن أن يعلن يهودي ملتزم عن مخلّص غير الشريعة الإلهية؟ ...

المصلوب ملعون، ولا حاجة الى مخلّص غير وصايا الله التي أعطاها بذاته في شريعته، وكل من يجرؤ على قول غير ذلك ليس إلا كافر يستحق القتل!

هكذا جعل شاول بولس من نفسه المدافع عن الله وعن شريعته المنزلة، فراح بكل قوة طبعه يلاحق المسيحيين ويضطهدهم مرتكزًا على قناعاته الراسخة.

وفجأة، حدث الارتداد (حوالي سنة ٣٥)، وهو حدثٌ يبقى غير قابل للتفسير بحسب المنطق البشري، رأى فيه الرسول يد الله المباشرة في حياته، من خلال لقائه الشخصي بالمسيح الممجّد. قلب هذا الحدث قناعاته رأسًا على عقب. فالمصلوب الذي أعلنته الشريعة ملعونًا، اختبره هو ممجّدًا! أخطأت الشريعة إذًا!

وإذا كان الله قد أحبّه وكشف له الحقيقة، وأعطاه الخلاص بالرغم من خطيئته، فالشريعة بوصاياها وثوابها والعقاب الذي تنادي به، لا تضمن الخلاص إذًا، بل وحدها رحمة الله بالمسيح يسوع يمكنها أن تخلّص الانسان.

أمام هذه القناعة، كان من الطبيعي لبولس، ذو الشخصية الصادقة، البعيدة عن المواربة والمحاباة، أن يحوّل غيرته وحياته كلها، من الدفاع عن الشريعة، الى البشارة بالمسيح يسوع. لكن دفاعه عن الشريعة كان جذريًا، لا يقف أمامه أي عائق، ولا يستثني أية وسيلة للدفاع عن الله وعن كلمته، فكيف تحوّل بولس إلى عيش البشرى الجديدة وإلى المناداة بها؟

أية بشرى عاشها بولس وأعلنها ؟ وكيف؟

تحوّل الفرّيسي الغيور إلى مسيحي رسول، فكان من الطبيعي البديهي أن يعلن لا يؤمن بالرب يسوع سيكون الصليب عقابه. فإذا به يؤكد:

"أَنا لَمَّا أَتَيْتُكُم، أَيُّها الإِخوَة، لم أَشَأْ أَن أَعرِفَ شَيئًا، وأَنا بَينَكُم، غَيرَ يسوعَ المسيح، بل يسوعَ المسيحَ المِصْلوب. وقَد جِئتُ إِلَيكم وبي ضُعفٌ وخَوفٌ ورِعدَةٌ شَديدة. (١ كو ٢: ١-٦).

أليس الله الذي طالما آمن به هو الإله الغيور المربّي؟ فبولس العبراني ابن العبراني، الفريسي الغيور على شريعة الآباء، يعرف تمامًا أن تاريخ الله مع البشر، هو تاريخ صعب تشوبه الخيانة والخطيئة، وأن الله الخالق والمخلّص هو مربٍ يعرف كيف يعاقب، ويجازي، ويعنّف، ويقسو، لخير خليقته وخلاصها. وهو بالحقيقة من يقول لمن يسعى إلى الثأر "لي الانتقام يقول الرب" (رو ١٢:٨). فما هو قصد بولس إذًا، وكيف نفهم قناعته المتناقضة، بأن الله الذي يؤمن به هو منتقمٌ غضوب لكنه كمؤمن يسعى إلى التشبّه بيسوع المصلوب الغافر الوديع والمتواضع القلب؟ فمن هو إله بولس؟ هو هو الله العنيف أم المسيح الرؤوف؟ وكيف فهم الرسول موضوع عنف الله؟.

*** عنف الله أو غضبه في الكتب المقدسة**

طالما فهم شاول أن مشكلة العنف، ترتبط في الكتاب المقدّس، بمسألة العدالة والحق، الذي يجب أن تكون له الغلبة في عالم يحضر فيه الشر بقوّة. كما كل اليهود الحكماء، عرف شاول أن لا معنى لموضوع "عنف الله" في نصوص العهد القديم، إلا من حيث ارتباطه بالمعركة ضد اللاعدالة والشر، أو ضد ما يسمّيه الكتاب المقدّس "الخطيئة". فالله في البيبليا هو إله "يتألّم" من الشر الذي يتجذّر في تاريخ البشر بسبب أعمالهم الشريرة.

هذا الألم، النابع من محبة الله لخليقته، جعله يلتزم بمعركة يتدخّل فيها بقوّة، للحدّ من الشر الذي يتربص بها. إن ما يسمّيه البشر "عنفًا" إلهيًا، هو في النصوص الموحاة "عدلٌ" يهدف إلى خير البشر.

فأمام عالم كان ولا يزال ينادي بالنسبيّة التي تعتبر الخير والشر مقولات متحرّكة، يَفرضها كل مجتمع بحسب مفاهيمه وأهدافه، ربط الكتاب المقدس الخير والشر بالله وحده، وجعل منهما مبادآن يتخطّيان خصوصيّات المجتمعات، المبنيّة على العرق والجنس والمستوى الاجتماعي. فالخير في الكتاب المقدس هو الله، وكل ما يتوافق مع طبيعته، والشر هو كل ما يتناقض معه. هو من يحدّد الخير ونقيضه أي الشر. وبما أن الإنسان خُلق على صورة الله، فإن كل ما يناقض طبيعة الله هو في الوقت عينه مناقض لطبيعة الإنسان. وبالتالي، لا يمكن أبدًا أن يكون تناقض بين وصايا الله وخير الإنسان. هذا هو قلب المفاهيم البيبليّة، وهذا ما توضّح لبولس العبراني بعد لقائه بالرب يسوع، فآمن به.

صحيح أن الكتاب المقدس وجد تبريرًا وغدرًا للعنف الذي اختبره الشعب المؤمن عبر تاريخه، فرأى فيه قصاصًا، أو تربية، أو تعليمًا هادفًا...

لكن البيبليا التي تمتدّ لأكثر من ١٥٠٠ سنة، تشهد فعليًا تراجعًا مطّردًا في تمجيد الأحداث العنيفة، وشرحها على أنها قصاص استحقّه الخطأة فرديًا أو جماعيًا. كما تشهد تراجعًا في تبرير العنف البشري الذي يبلغ قمّته في العهد الجديد.

بعد اهتدائه، إثر لقائه بالرب المصلوب الممجّد، وعى بولس أن عقاب الخطيئة هو حقّ لا يملكه سوى الله، وأنه لا يمكن لأي إنسان أن يسرقه منه، لذلك نراه يعلن في رسالته الى أهل روما: "لي الانتقام يقول الرب" (رو ١٢:١٩)، فلا "تردوا والمكافأة الشر بالشر" (رو ١٢:١٧). وكأن عنف الله في مفهوم بولس الرسول، هو ايقافٌ لعنف البشر، ورفض لتبرير أي عنفٍ باسمه.

ولكن عن أي عنف وغضب يتكلّم؟ وما معنى غضب الله في مفهومه؟

غضب الله ضد الخطيئة (رو١: ١٨-٣٢)

ليس موضوع غضب الله خاصًا بالعهد القديم، كما يمكن أن يظن خاطئًا من يقارن بين إله عنيف هو إله العهد القديم، وإله محب، حنون ورحوم هو إله العهد الجديد. فغضب الله نراه في نصوص العهد القديم كما نقرأ عنه في قلب رسالة القديس بولس إلى روما (رج ١ تس ١:١٠ ؛ كو ٣:٥).

نسب الأنبياء إلى الله مشاعر إنسانيّة، فجعلوا منه غيورًا، وعطوفًا ومحبًا وعنيفًا... لكن قيمة هذه المشاعر تبقى رمزيّة، ولا معنى لها إلا في إطار لاهوت العهد والالتزام المتبادل به بين الله وشعبه. خُتِم هذا العهد "بكلمة" تجاه كلمة التزم بها البشر، فأتى التعبير عنه من خلال لغة العلاقات العاطفيّة .

في هذا الإطار يأخذ الغضب مكانه ويبدو كشعور يرافق القصاص الذي يترتّب على الخطأ. بالحقيقة، فهم الأنبياء العلاقة بين الله وشعبه على صورة العلاقة بين الأب وأولاده العصاة. ينكسر القلب الوالدي بسبب

الخطأ الذي يمسّه شخصيًا من خلال المسّ بمشروعه التربوي، وبالتالي كرامته كإنسان، فيغضب ويعاقب. فالعقاب هو إذًا تعبير عنعيش المسؤوليّة الوالدية وعن الاهتمام بالأولاد ومساقبلهم. عاش الأنبياء في مجتمع يقوم على الحزم القسوة في تطبيق المشروع التربوي، فشدّدوا على حقيقة العقاب، وعلى بديهيّة الغضب كنتيجة طبيعيّة للخطأ.

غضب الله بحسب بولس، هو إذًا نتيجة خطيئة الإنسان غير المهتمّ بالله، أو المتمرّد على العهد الذي التزم به. بالطبع، ليست هذه الفكرة جديدة على الفكر البيبلي؛ لكن الجديد الذي أتى به بولس هو مفهومه للطريقة التي عبّر الله فيها عن غضبه. في رو ١: ٢٤ يعتبر بولس أن الله أظهر غضبه بأنه رذل البشر، تركهم لشهوات قلوبهم، التي تقودهم إلى ممارسات دنيئة في آ٢٤، فيحصدون نتائج جهلهم. قرر الناس العيش وكأن الله غير موجود، فتركهم الله لذواتهم، ويا له من عقاب!

لا يقول الرسول أن الله سيعاقب البشر لتصرّفاتهم الشنيعة، ولا يذكر أي قصاص معروف (موت، جوع، وباء، حرب، جوع...)، بل يرى في ترك الله للخطأة القصاص الأهم، إذ أن الإنسان دون الله، ينتهي منغمسًا في الخطيئة أكثر فأكثر. دون الله، يتخلّص الانسان من المقياس الأخلاقي الذي وضعه له خالقه، ويبتعد بالتالي عن مصدر الحياة الأساسي وهدفها، وفي ذلك الموت الحقيقي. بالنسبة إلى بولس الرسول، انتهى زمن عقاب الخطيئة بالمرض، والعقم والجوع والحروب...

فهم أن حلقة العنف والعنف المتبادل انكسرت بالصليب. فهم أن الرب كسر قوة العنف وأوقفها بالغفران؛ وأن الموت مات بقيامة يسوع ففقد العنف قوته.

صار بولس، جرّاء هذا الموقف، موضع سخرية واستهزاء. اتُّهِم بالضعف وبعدم المقدرة على المحاسبة، فأعلن في ٢ كو ١٢:١٠ "اني عندما أكون ضعيفًا أكون قويًا" لأن نعمة الرب تكفيني. أما عن أيّة قوّة يتكلّم، فهو يستعملالكلمة اليونانية Parresia، بمعنى الصدق الكامل والجرأة والحريّة التامّة، وإثبات الذات بثقة واحترام للآخر (رج ٢ كو ٣:١٢؛ ٧:٤ كما في أف ٦:١٩ وفيل ٦:١٩ وفلم ١:٢٠؛ كو ٢:١٥). أنها القوة على طريقة يسوع، قوة بهدي الروح القدس، لأن من لا يعمل بحسب قناعاته "يحكم على نفسه في ما يقرّره" (رو ١٤:٣٢)، فيكون كالأطفال "تتقاذفهم أمواج المذاهب، ويعبث بهم كل ريح فيخدعهم الناس ويحتالون عليهم بمكرهم ليضلّوهم" (أف ٤: ١٤).

أن الدفاع عن القناعات لا، برأي الرسول، يعني المواجهة العنيفة مع من يناقضنا الرأي، فكان الحازم اللاعنفي والوديع الحازم. لكن لماذا أخذ بولس دائمًا صورة العنيف رجل السيف؟

بولس رجل السيف العنيف أو الحازم؟

في كل الأيقونات والرسومات نرى بولس وفي يده سيف. هل هو السيف الذي به قُطع رأسه؟ أم هو سيفٌ استعمله فحارب وقتل...؟ أم هل هو سيف كلمة الله القاطعة ذات الحدّين، تلك الكلمة التي تفحص نوايا القلوب (عب ٤:١٢) صورة الحقيقة القاطعة، المؤلمة التي تجرح لتشفي؟

حُفرت في الذاكرة قديمًا ولا زالت حتى الآن، صورة بولس المضطهِد، القوي، العنيف، الذي بقي بعد اهتدائه للمسيح، صاحب القلم الموجِع والكلمة القاطعة المؤلمة. حفظ عنه التاريخ صورة الرجل الغضوب الذي لا يعرف كيف يبطّن رأيه بكلمات منمّقة، والذي لا يتوانى عن لعن من لا يحب يسوع؛ وعن التمنّي لمن يمجّدون الختان بأن يكونوا مقطوعي الأعضاء (رو ٥: ١٢)، وعن نعت المنادين بالباطل "بالكلاب" (فيل ٣: ٢)؛ كما أنه لا يهاب تسمية الأشياء بأسمائها. فالزناة عند بولس، زناة أمام الملأ؛ والسارقون سارقون يستحقون العقاب؛ وذوي الوجهين هم ماكرون وأبعد ما يكون عن سبيل المسيح. يكفي أن نقرأ رسالته إلى غلاطية لنرى كيف يواجه بطرس مثلاً، وكيف ينعت الغلاطيين أحبابه "بالأغبياء"، وهل يمكن أن نتقبل رسالته إلى فيليبي خاصة في تحذيره لأهلها من "الكلاب"، أو أن نتفهم جرأته في رسالته الأولى إلى أهل كورنتس وفي توبيخه لهم بقسوة شديدة مبكية على الزنى، وعلى التقاضي أمام الوثنيين، وعلى تفلّتهم وانقسامهم... فبأي حق يتصرّف على هذا النحو؟ نجد إنه صورة الرسول المقاتل في سبيل الحق، ومثال من يحكم دون هوادة على كل من لا يشاطره قناعاته وإيمانه.

في كتاباته هو لا يأمر أحدًا أبدًا، لكنه لا يتوانى عن التحريض والتشجيع والطلب والحث والصلاة، مقدِّمًا نفسه مثالاً (١ كو ٤:١٦) لأنه يقتدي بالمسيح (١ كو ١١:١؛ ١ تس ١:٦؛ فل ٢:٥). لكنّه بشرٌ! هو إنسان، يتعب ويغضب ويقسو في كلامه (٢ كو ٢:١٤-٧:٤؛ ١:١-١٣:١٣). لم يكتب بولس في خلوة المفكّر المتأمّل الهادئ، بل في صَخَب الرسول المبشِّر الثائر. كتب رسائله في مناسبات محدّدة، وليس كأطروحات فلسفيّة ولاهوتيّة وروحيّة عامة.

تألّم كثيرًا من إخوته المسيحيين الذين طالما اتّهموه وشوّهوا سمعته ورسالته، تمامًا كما فعل به اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح (٢كو١١). طُعن برسوليته، كما طُعن بشخصيته، فاتُّهم بأنه لا يعرف أن يتكلّم (٢ كو ١٢:١)، وبأنه لا يجيد توضيح البشارة (٢كو٤:٣)، وبأنه ضعيف الشخصيّة (٢كو١٠:١، ١١:٢١)... وبقي، بالرغم من كل ذلك، الراعي الصالح والمضحّي المحبّ. فقد كان بولس مقتنعًا تمامًا بأنه يتصرّف على مثال معلّمه. عنيفٌ قاسٍ أم أب حنون؟ من أنت يا بولس؟

قناعات بولس وشخصيته

قيل في بولس قديمًا إنه "وُلد "متعدّدًا"، تظهر في نصوصه التناقضات القويّة والكثيرة، حتى أنه يبدو وكأنه إنسان، مستحيل التوحيد. والحق، أنه من الصعب على قارئ رسائل بولس، أن يفهم كيفيّة التوازن في شخصيّة هذا الرسول الوديع والحازم، الفخور والمتواضع؛ القوي والضعيف، شاول الماضي وبولس الحاضر والمستقبل.

قبل الحكم عليه من خلال رسائله، يجدر بنا لفت الانتباه الى أن رسائل بولس ليست رسائل تبشير بل رسائل تنشئة. فهو لم يكتب إلى غير المسيحيّين، بل إلى مسيحيّين مؤنجلين، وصلتهم البشارة بواسطته، ورأى أنه من الضروري تكملة ترتبيتهم المسيحيّة وتصحيح مسارهم الإيماني فكتب لهم الرسائل. كان بولس يريد علاقات شخصيّة حميميّة وثابتة مع من كتب إليهم، سعى إلى علاقة شبيهة بعلاقة أب وأم وأولاد (١ تس ٢:٧، ١١، ١٧؛ غل ٤: ١٩؛ ١ كو ٤:١٥).

لنا في الرسالة الثانية إلى اهل كورنتس مثالاً يُدخلنا إلى عمق شخصيّة هذا الرسول، وإلى عمق قناعاته التي طبعت تصرّفاته، وعلاقاته وردّات فعله... وكتاباته.

يوم وصلته الأخبار السيئة عن مؤمني كورنتس وجماعتها التي أسسها بولس بنفسه، كتب لهم الرسول رسالة عنيفة علّها يقيدهم إلى الحق؛، لكنها لم تساهم في تهدئة الخواطر، بل أدّت، على العكس، الى إصغاء الناس الى متهوّدين وفدوا الى هذه الجماعة وأثاروها ضد تعاليم المؤسّس. أرسل هذا الأخير تيموتاوس لتوضيح الأمور وتصحيحها، ففشل (١ كو ٤: ١٤-٢١؛ ٧: ١٢)، ثم أرسل تيطس مع رسالة توصية فكان أكثر دبلوماسية من تيموتاوس ونجح في استعادتهم (غل ٢: ١-٣)، فاستطاع بولس عندها أن يكتب لهم مرة أخرى يُعرب لهم فيها عن مكانتهم الكبيرة في قلبه (٦:١٢-١٣)، دون أن يتراجع عن توبيخهم على أخطائهم. هدفت هذه الرسالة التي تعتمد لهجة تتراوح بين الحنان والحزم القاسي، إلى تحديد وتوضيح مميزات الرسالة الحقيقيّة، فكشفت لنا بالفعل معنى "العنف" أو "الحزم البولسي، كما أوضحت أسبابه التي يمكن تلخيصها بثلاثة:

١- هاجم المبشرون الجدد بولس، ورفضوا رسوليّته، وجرّحوا به شخصيًّا، ولم يتوانوا عن اي من الوسائل في سبيل تحقيره هو مؤسس الجماعة، مشكّكين بنواياه ومقلّلين من أهميّة انجازاته، فكان عليه أن يردّ عليهم مرة واحد ونهائية.

٢- نادوا بـ "إنجيل آخر"، يبشّر بيسوع أرضي" بحسب الجسد" (٤:١١). ومجّدوا شخصيّة موسى. فكان عليه أن يوضح الايمان الحق.

٣- وجدوا في مؤمني كورنتس آذانًا جيّدة، فكان لا بدّ لبولس من توعية من يعتبرهم أولاده بالايمان، وإنارة فكرهم، وإقناعهم، بالرغم من صعوبة المهمة، وأنه كان مضطرًا أن يتكلّم عن ذاته.

١- عنف، حزم أم طبع حسّاس ومسؤولية؟

هدف المنشدون بانتقادهم لبولس مؤسس الجماعة، الغرباء عن جماعة كورنتس إلى إبعاد المؤمنين عن بشارته وقناعاته. ويبدو أنهم نجحوا في مسعاهم فرذل بعض الكورنثيين بولس، وما نشّأهم عليه. فوجد الرسول نفسه أمام مشكلة حقيقية. فهل يجدر به أن يتراجع تاركًا "أولاده" للتعاليم الغريبة الخطرة؟ كان يمكن أن يفعل ذلك لو لم يكن مهتمًا بهم، فهذا هو الأسهل له. لكنه لا يمكن أن يتهاون مع من يحب، وهو يعلم أنه مسؤول عن خلاصهم.

وهكذا يعلن بولس في رسالته أنه قادر على إثبات ذاته، وأنه لا يسمح لأحد بأن ينتقص من كرامته، لأن في ذلك انتقاص من كرامة من أرسله، وكرامة الرسالة التي أؤتمن عليها.

في هذا الإطار، يبدأ الرسول في تعداد مفاخره والآيات التي أيّدت رسالته أكثر من الجميع ، ويعلن تأهبه للمعركة. لكن معركته هي معركة الرب، تستعمل الوسائل التي استعملها يسوع، وعنفه ما كان يومًا أعمالاً عنفية تجاه أيّ كان. إن كل ما نعرفه عنه بالحقيقة، هو عنفه الكلامي. ففي المثل الذي نستعرضه (٢ كو)، نستشف ذلك من خلال السخرية التي يسمح له بتمرير الملاحظات بشكل مبطّن، لكنه شديد الوضوح لمن يتوجه إليهم.

اتّهموه بأنه جريء، لا بل وقح، ولكن في كتاباته وهو غائب ليس إلا، أما الحقيقة فهو ضعيف جبان لا شأن له عندما يكون في مواجهة الناس. فبدلاً من الردّ بالشتائم والتهديد والوعيد، يصف بولس ذاته بالوضيع "tapeino.j" (١٠: ١) والسطحي " ivdiw,thj " الجاهل بأمور اللياقات وفن الخطابة (١١: ٦)، مستعملاً اللغة التي استعملوها جاعلين منه مضحكة. لمواجهة الشتيمة، استعمل بولس الأسلوب الساخر معظّمًا حكمة من وصفوه بالجاهل، واتباعهم الأعمى للجهلاء: "أنتم العقلاء الفهماء، تحتملون الجهلاء بإرادتكم".

اتهموه بالازدواجية وبأنه يقول الـ"نعم" والـ"لا" في الوقت عينه. جرحه هذا الاتهام في الصميم، لكنّه بدلاً من التخطيط للانتقام "المقدّس"، يثور ويسأل: هل أن في مجرّد تغيير خطته في السفر علامة خفّة (١: ١٧أ)؛ أو

علامة على عدم القدرة على أخذ قرار؛ أو على مواربة ومراءاة؟ لا، هو يرتكز في كل تصرفاته على أمانة الله وصدقه "pisto.j de. o` qeo.j".

اتُهم بأنه "ماكر، احتال عليهم" (٢ كو ١٢: ١٦) وأخذ منهم مالاً بطرق ملتوية. فإذا به لا يستعمل في ردّه طرق أجداده في شريعة المثل، بل انتفض ورفض، معلنًا أنه أبعد ما يكون عن مكر الحية والتوائها (١١: ٣)، وأنه مستعد لفتح ملفاته الواحد تلو الآخر (احتلت عليكم بواسطة أحد مرسليّ؟ بواسطة تيطس؟ غيّرت طرقي...؟). فعبّر بذلك عن عن رفضه الشك بمصداقيته وشفافيته.

اعتبر هؤلاء الوافدون الجدد أنهم للمسيح، ملمّحين بأن بولس ليس على المستوى عينه، وبأنه ليس رسولاً، في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك تمامًا. فجرحوه في الصميم. إنهم "رسلٌ" بالكلام فقط، هم الذين لم يخاطروا بحياتهم قط، على عكسه هو. وهنا أيضًا يصبب بولس جام غضبه ليس بالعنف بل بالتعبير من خلال السخرية الجارحة، فبعد أن استعمل السخرية سلاحًا للدفاع عن نفسه، يستعمله الآن سلاح فيتكلم عنهم باستخفاف ناعتًا إياهم بال "سوبر رسل"، مشيرًا إليهم بـ"هؤلاء المنتحلين صفة الرسل toiou/toi yeudapo,stoloi"، العمّال الخدّاعين (١١: ١٣). ومضيفًا: "طبعًا ليس لنا الجرأة بأن نتساوى ببعضهم"... كل ذلك دون أن يتنازل فيسمّيهم بأسمائهم، هو الذين بحاجة الى رسائل توصية لكي يتمكّنوا من القيام بواجبهم الرسولي.

عنف كلامي؟ نعم لأن تأثيرهم خطير، فلا بدّ من إسكاتهم لئلا يبشّرون بانجيل آخر (١١: ٤).

يعرف بولس أن مهمته صعبة جدًا، فيهاجم معاديه على أرضهم مستعملاً سلاحهم واستراتيجيتهم (١١: ٢١-٢٣). يفهمون لغة المعارك، فيستعمل مَثَّل المعارك العسكريّة، معتبرًا أنه يحاول محاصرة كورنتس لإضعاف قوتّها في حربها ضدّ معرفة الله، فهو يعلم تمامًا كيف يقضي على آخر معاقل المقاومة فيها (٢ كو ١٠: ٤-٦). في هذا الإطار، نقرأ تعابيرًا مثل "السلاح والأسر والحصون والهدم والجهاد..."، فنظن بأن المعركة واقعة! لكن الحقيقة هي أن معركة بولس هي معركة فكرية، ايمانية ليس إلا.

في آ٧-١١ يتوجّه إلى معاديه الذين يبشّرون بأنهم "رسل المسيح" وبعدم رسوليته هو، فيتشبّه بإرميا النبي الذي اختاره الله "للبنيان والخراب" (إر ١: ١٠)، ويعلن بوضوح أنّه لن يسعى إلى الخراب، مع قدرته على ذلك، بل يفضّل البنيان؛ لكنّه يعرف، إن اضطرّ إلى ذلك، أن يكون حازمًا قويًّا في حضوره، كما هو في غيابه.

وكمؤسّس للجماعة ومسؤول عن حماية إيمانها، لا يتوانى في النهاية في آ١٢-١٨ من اتّهام السوبر-رسل الماكرين (رج ١١:٥؛ ١٢:١١) الذين يواجهونه بالكبرياء واستغلال ما عمله هو وتعب لإنجاحه.

ولماذا كل هذا؟ ذاك لأن من يحب يستفرس عند الخطر المحدق بمن يحبه. والحال أن حبًا كبيرًا للمسيح وللكورنثيين كان يعتمل في قلب بولس، هو الذي أعلن أن "محبة المسيح تحثّنا". هذه المحبّة وحدها تفسّر "عنفه" فيما شعر وعاش وكتب.

٢– عنف تجاه المتربّصين شرًّا بالإنجيل

تحوّل بولس ذو الطبع الحسّاس، والشغوف المنتفض على ما يؤمن بأنه خطأ، الى إنسان لا يُناقَش أمام من يخون قضية المسيح، معرّضين أولاده بالايمان، إلى خطر الوقوع فريسةَ مكر الشرير (١١: ٣).

يعلن بولس نفسه أبًا للجماعة (١٢:١٤)، مسؤولاً عن طهارتها ونقاوتها أمام المسيح، ومسؤولاً بالتالي، عن المرافعة عنها في مواجهة كل من يحاول خداعها من خلال التبشير بإنجيل سهل، أقلّ تطلّبًا من إنجيل بولس. إنجيلاً كهذا هو إنجيل "ليسوع آخر".

في موقف الرسول هذا، انتفاضة مقدّسة، وكأنه يقول "لا تمسّوا المسيح! لا تمسّوا الانجيل! لا تمسّوا الكورنثيين (١١: ٣–٤ رج غل ١: ٨). يسمّي حساسيته المفرطة تجاه هذه المسألة "غيرة" (١١: ٢٢)، وكأنه يعتبر الكورنثيين جماعة خاصة بالمسيح، لا يمكن لأحد أن يستعيدهم منه.

كان بولس متأكدًا من أن خطر هؤلاء الرسل الدجالين هو خطر مميب، لأن سماع الكورنثيين لهم سيقودهم الى الهلاك لا محالة (١٠: ٨؛ ١٣: ١٠). فإن انتفض بعنف وغيرة وحماس (١١: ١٢)، فما ذلك إلا لأنه واعٍ لخير من ولدهم للايمان، يدافع عنهم أكثر منهم في دفاعنم عن ذواتهم. موقف الكرنثيين، تجاه من بشكّل عليهم الخطر الأكبر، "أخرج بولس عن خطوره". وقبولهم بفرح بأن يكونوا فريسة لمن يبتلعهم "katesqi,ei"، ويستغلّهم، ويسيء اليهم ويحتقرهم (١١: ٢٠)، يوضح لنا انتفاضته العنيفة تجاه هؤلاء المندسّين، الذين يتعاملون مع كلمة الله كتجّار، محوّلين البشارة إلى سلعة تتناسب ورغبات المستهلكين المرتدّين من الوثنينة حديثًا. كان بولس مجبرًا إلى أخذ موقفين حازمين لا رجوع عنهما: أولاً وضع المضلِّلين عند حدّهم ومنعهم بقوة عن الإساءة إليه من جهة ومن تحريف الإنجيل من جهة ثانية؛ وثانيًا توعية أولاده المضلَّلين ولو اضطرّه ذلك إلى استعمال القسوة والحزم.

٣– حزم تجاه أولاده

بولس الرسول الحازم، يأسف لاضطراره إلى استعمال القسوة "مع بعضهم"، فيتوجّه الى الكورنثيين يرجوهم "ألاّ يضطرّوه لاستعمال القسوة عينها معهم، عند زيارته القادمة (١٠: ٢). لكنه يعود فيذكّرهم ببذله ذاته في خدمتهم، تمامًا كالأهل الذين "يبذلون أنفسهم عن أنفسهم أولادهم" (٢ كو ١٢: ١٤–١٥)، موضحًا لهم أنه ولو استعمل معهم القسوة فما ذلك إلاّ لبنيانهم (٢ كو ١٢:١٩). في رسالته إليهم، لا يتوانى بولس عن قول الحقيقة ولو قاسية، إن أخطاءهم كثيرة وكذلك خطاياهم، وعليهم أن يحاسبوا أنفسهم ويختبروا ذواتهم، وإلا كان مجبرًا على استعمال الشدّة (٢ كو ١٣:١٠). هو موقف صعب لا يقبله البشر بالطبع، لكن خوف الرسول يبقى بموقف الله تجاهه لئلا ينبذه الله لفشله في رسالته.

فلا يخبّر عن أحد نفسه. ليس بولس إنسان ضعيف، فهو إن ظهر أمام أولاده ضعيفًا، فذلك لأنه يشارك المسيح ضعف المصلوب. لكنه في الوقت عينه يشارك القائم من الموت قوته وسلطانه، وهو مستعدّ لممارسته هذه السلطة إن لم يسعَ أولاده إلى إصلاح ذواتهم. نعم، إن الرسول قوي متسلّط لكنه لا يستعمل القوة أبدًا في ما يخالف الحق.

بقسوته هذه، يشدّد بولس على الحقوق والواجبات، وعلى الافتخار... فيجد نفسه منزعجًا من اضطراره الكلام عن نفسه (١٠: ١) وعن النزاع الذي يستشعره في ذاته بين "وداعة الرب وغفرانه" (آ ١) من جهة، وبين الجرأة التي يجب أن يتسلّح بها لممارسته سلطته بقوة وحزم مع "بعضهم" (آ ٢) من جهة أخرى. فمع أنه فخور ذو طبع حاد، هو مؤمن يسعى للاقتداء بالمسيح الوديع والمتواضع القلب (مت ١١: ٢٩)، وقد فهم منذ اهتدائه ان التمجيد يحصل بالاتضاع، لكن وداعة الرب لا تعني التسامح، بأي شكل من الأشكال، مع من يمس كرامة الرسول وعنفوانه أو كرامة الرسالة التي يحملها.

خاتمة

وجد الرسول نفسه في موقف لا يحسد عليه، إن على الصعيد الشخصي أو على صعيد الانجيل، فكان عليه أولاً، أن يهدم معاقل المعتدين على بشارة الرب، وعلى رسوله وعلى المؤمنين به، وذلك بإجبارهم على النزول عن عروشهم. وكان عليه ثانيًا، أن يعيد تربية أولاده المضلّلين، الذين عصوا من ولَدهم بالرب، فتركوا حقيقة المسيح واكتفوا بانجيل محرّف أسهل للتطبيق. وكان عليه أخيرًا، أن يعيد الاعتبار لذاته، ليس رغبة بالسيطرة، أو كردة فعل عنيفة على ما تعرّض له، بل لضرورات تربوية (١٠: ٨؛ ١٢: ٦)، تقضي بإعادة الاعتبار إلى من أرسله الله ليحمل كلمته، ويكون سفيره حيث حلّ.

بولس هو في الحقيقة، صورة النبي الحق، ذو الشخصيّة الصادقة الثابتة، التي لا تتراجع مهما صعبت عليها الظروف والتحدّيات. ولأنه النبي الحق، هو في الوقت عينه الوديع والمتواضع والمحب الذي يبذل نفسه لأجل غيره. إن الألم الكبير الذي عاشه دون حقد ولا يأس، هو علامة محبّته ووداعته. فهل كان عنيفًا؟ لا! بل هو

رسول عانى من عنف الآخرين ضدّه إلى أقسى الحدود، لأنه كان رجل الحق. خدم الحقيقة، فكان رسول يسوع "الطريق والحق والحياة"، وكان نصيبه نصيب سيّده. سيف بولس، ليس سيف المحارب الذي يسعى للسيطرة على العالم، بل سيف كلمة الحق التي تجرح حاملها لأنه لا يستطيع أن يتجاهلها؛ إنه سيف الألم الذي يخرق قلب الرسول، ليجري منه ما يروي العالم.

فماذا نقول إذًا عن عنفٍ بولس كهذا؟